حول معاني حروف المعاني وأصول استعمالها

حسن عباس

الحلقة الأولى

حول صعوبة التعامل مع حروف المعاني .

لقد درج علماء اللغة العربية وفقهاؤها القدامى منهم والمحدثون على تقنين استعمال حروف المعاني من (جر وعطف وجزم ونصب وغيرها .) وفق ما ورد في تراثنا اللغوي من الشعر العربي الأصيل ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والنصوص الأدبية ، والمعاجم اللغوية ، وكتب الصرف والنحو وما إليها ...

ويتشدد بعض النقاد في تحديد طريقة استعمال كل حرف منها ، بأن تجري وفق ما شاع استعماله بغض النظر عن جدواها في تأدية المعنى الدقيق الذي يرمي إليه الكاتب .

وهكذا إذا كان المعنى المراد مستحدثا أو غير شائع ، فإن استعمال الحرف وفق ما شاع ، قد يحيد بالكاتب عن غرضه ، أو يوقعه صراحة في الخطأ .

ونظرا لكثرة حروف المعاني في اللغة العربية وتنوع استعمال كل واحد منها لشتى الأغراض (حزنت له / الكتاب له) ، فإنه ليس ثمة ما هو أخطر على فصحى الكاتب العربي من مسألة استعمال هذه الحروف بمعرض التعبير عن معانيه .

كما أن تعامل أكثر من حرف مع فعل واحد (حزنت له / حزنت عليه) ، للتعبير عن أكثر من غرض ، يزيد المسألة صعوبة . وقالوا : ((مات الفراء وفي قلبه شيء من حتى)) .

وتتجلى أهمية حروف المعاني وخطورة استعمالها ، في كونها هي الأدوات الثقافية الدقيقة التي يسبر الكاتب العربي بها أعماق نفسه ويلاحق بها تلونات أفكاره ، ليستخرج منهما معانيه خالصة من كل شائبة على وضوح وبلاغة ورشاقة وشفافية فجاءت تسميتها حروف المعاني موافقة لمهامها ووظائفها . وقصة (واو) اللوزينج في عبارة (لا ، وأيدك الله) ما هي إلا واحدة من آلاف الأمثلة .

وإذا كان من الجائز تشبيه حروف المعاني في اللغة العربية بالأدوات الجراحية الدقيقة المعاصرة يسبر

الجراح بها أعضاء البدن ، فيستخلص العلل من مكامنها .

فإن معاناة الكاتب العربي مع حروف المعاني هي أشد من معاناة الطبيب مع الأدوات الجراحية . ذا يتعامل مع بعضها مما يتعلق باختصاصه ، وذاك يتعامل مع واحد وثلاثين نوعا من حروف المعاني .

وشبابنا ممن يتعاطون الكتابة لشتى الأغراض الأدبية والعلمية والصحفية وما إليها ، أين هم اليوم من تراثنا اللغوي ؟

إنهم لم يحفظوا آلاف الأبيات من الشعر العربي الأصيل ، جاهلية وغير جاهليّة عن ظهر قلب ، ولا عشرات السور القرآنية ، ولا الكثير من النثر الأدبي ، ولا كتب الصرف والنحو ، كما كان يفعل جيل العشرينيات أو الثلاثينيات من مثقفي هذا القرن .

ولذلك فإنه لمن المتعذر عليهم إن لم يكن مستحيلا ، أن يستعملوا حروف المعاني جميعاً في وجوهها الصحيحة ولو استعملوها على وجه ما شاع استعماله . فما كل ما شاع استعماله يصلح للتعبير عن معان لم يشع استعمالها ، أو لم يسبق تداولها .

ما السبيل إلى ترويض حروف المعاني ؟

إنه لامخرج للكاتب العربي من هذا الحصار التراثي ، إلا أن يستهدي بخصائص الحروف العربية ومعانيها بمعرض استعمال حروف المعاني تعبيرا عن حاجاته ومعانيه . وبذلك نعود إلى أصول التراث .

فاللغة العربية تتفرد عن سائر اللغات الحية المعاصرة ، بأن لكل حرف من حروفها معاني محددة تتوافق بصورة عامة مع خصائصه .

وهذه الخصائص ، إما أن تكون ايمائية تمثيلية تتأتى من طريقة التلفظ بصوت الحرف ، وإما أن تكون إيحائية تتأتى من صدى صوته في النفس .

وهذا الاختلاف في خصائص هاتين الفئتين من الحروف العربية (حروف المباني) ، يعود أصلا إلى الاختلاف في المستوى الحضاري للمراحل التي أبدعت خلالها كل فئة منهما .

فطريقة التعبير عن المعاني في دنيا التواصل إيماء وتمثيلا بالحركات الجسمية (يد .. رأس . فك . أسنان . فم ..) ، إنما هي أكثر بدائية وتخلفا ، وبالتالي أقل تطوراً ورقياً من التعبير عنهما بصدى أصوات الحروف في النفس . وهذا يقطع بأن مرحلة إبداع أصوات الحروف الايمائية التمثيلية هي أعرق في القدم من مرحلة إبداع أصوات الحروف الايحائية .

الجذور الغابية والزراعية والرعوية في الحروف العربية :

لقد تبين لي في دراسة متعمقة عن (الشخصية العربية والحرف العربي) أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عبر ثلاث مراحل .

ففي المرحلة الغابية التي امتدت منذ بداية العصر الجليدي الأخير حتى الألف (12) ق.م ، قد بقي لنا يقينا مما أبدعه الانسان العربي خلالها من وسائل التواصل مع أبناء جنسه أصول الحروف الجوفية الثلاثة (الألف والواو والياء) .

وفي المرحلة الزراعية التي امتدت منذ الألف (12 حتى الألف 9) ق.م أبدعت المرأة زعيمة المرحلة الزراعية الحروف الايمائية ، وقد بقي لنا منها يقينا أصول حروف (ف. م. ل. ذ. ث) واحتمالا حرفا (ش. خ).

أما في المرحلة الرعوية التي امتدت منذ الألف (9) ق.م حتى العصور الجاهلية الأولى ، فقد أبدع الرجل زعيم المرحلة الرعوية ، الحروف الايحائية. كان

منها يقينا الحروف الحلقية (ح.ع.غ) . والحروف (ص. ض. ط. ظ. ق) تفخيما لحروف (س. د. ت. ذ. ك) ، وباحتمال شديد ما بقي من الحروف ، كما سيأتي في الحلقات القادمة بشيء من التفصيل .

لايجرح هذا التصنيف المرحلي أن يكون الانسان العربي قد اهتدى إلى أصول أصوات بعض الحروف الرعوية المحتملة في مراحل زراعية أو غابية سابقة ، مادام قد هذبها وطورها واعتمد صدى أصواتها في النفس تعبيراً عن حاجاته ومعانيه في المرحلة الرعوية ، كما سيأتي في الحديث عن معاني حروف المعاني .

ولقد اعتمدت في هذا التصنيف المرحلي أدلة كثيرة ، منها التاريخي الأثري ، ومنها الاجتماعي والنفسي والمهني واللغوي وما إليها . ولكن اختصاراً للحديث وحصراً له ، سنكتفي في الحلقات القادمة بسرد الأدلة اللغوية ، لانتطرق إلى سواها إلا عند الضرورة .

على أن هذا التصنيف سيلاقي معارضة شديدة ممن ينكرون على اللغة العربية فطرتها ، وعلى أصوات الحروف العربية موحيات معانيها .

وسيرى هؤلاء المعرّضون أن لكل حرف عربي معانيه ووظائفه التي استمدها من خصائصه الايمائية أو الايحائية ، بالرجوع إلى المعاجم اللغوية . وسوف يرون أنه لايمكن تعليل هذه الخصائص والمعاني إلا بالتسليم بانتماء الحروف العربية إلى مراحل الحياة الثلاث آنفة الذكر .

ولما كان معظم حروف المعاني مؤلفا من حرف واحد أو حرفين ، فإنها بلاشك هي أقدم المستحاثات اللغوية وألصقها طبيعة ووظيفة بمراحل إبداع حروفها . وسيجد القارىء الحيادي بمعرض الكشف عن أصول معانيها مدى صدق تصنيفنا الحروف العربية ، ليس إلى ايمائي وإيحائي فحسب ، وإنما إلى غابي وزراعي ورعوي أيضا .